ورقة في بيان

حكمة رب الأرباب

كتبه: بأس الفرد

أما بعد حمد الله بما هو أهله، فهذا بيان يسهل تناوله لما أجملته في رسالة التكليف والتشريف، وتوضيح لمستورها لطيف.

قلت: «إنّ من نظر بصحة العقل لم يخف عليه بعض ما في الخلق من الإحكام، وقد يرى في ذلك وجوها من الحِكَم، ومهما دخله الشك في ذلك لم يخرجه عن الإمكان، وحسبُ المؤمن هذا القدر إذ كانَ ترادف تلك الممكنات سببا للاطمئنان بحكمة الربِّ العليّ قبل بلوغ الوحي، حتى إذا بعث الله نبيه بالخبر اليقين لم يبق شكٌّ في حكمته سبحانه، ألا ترى أن من نظر إلى هذا العالم وكان مع ذلك يرجع إلى مسكة من عقل أو نصيب من إنصاف لم يجد بدا من الإقرار بأن كثيرا من أفراده محكمة أي إحكام، وهذا إما أن يكون اتفاقا من غير قصد، أو يكون لحكمة من حكم الرب سبحانه، وأي ذلك كان، فإن بإزاء هذه الأمور المحكمة أمورا قد يظنها الظان بلا سبب ظاهر ولا معنى بين، كالشر والظلم وما كان على خلاف العادة من نبات منقطعٍ في الصحراء، وحجارة لا يعلم لها نفع، فإن قطع بأن لا حكمة وراءها لمجرد الظن، وجب على قياسه أن يقطع بأن وراء الأمور المحكمة خالقا حكيما لعلة الظن كذلك، إذ كان ما احتمل أن يكون إحكامه لأجل حكمة وغاية، كالأمر يحتمل أن لا حكمة وراءه ولا علة، ومن قطع في مقام ثم امتنع عن ذلك في غيره ناقض بل كابر، لأن الاحتمال في كلٍّ قائم».

وبيـان هـذا الـكلام أن من تفكـر في خلق الله بعقله ورويته قبل سـماعه الـوحي لا يخـرج عـن أحد أمريـن: إمـا أن يجدَ في العالم من آثـار الإتقان والإحسـان مـا يوجـب العلـم بحكمـة الله، أو يعـرض لـه في ذلـك مـا يكـون سـببا لشـكه وارتيابه.

فـالأولُ كَإتقـان السـماوات بنجومهـا وكواكبهـا ومبادئهـا الطبيعيـة والرياضيـة، ولـم كان مـاء البحـر مالحـا، وكيـف كان يكـون لـو أنـهُ استـحال عذبًـا، ومـا شـابه هـذا ممـا يحمـل الناظـر فيـه علـى اعتقـاد حكمـة صانعـه.

والثـاني نحـو الشر والظلـم والنبـات المنقطـع ومـا توهـم العقـل عـدم الانتفـاع بـه مـن الأعضـاء والأمـراض وغير ذلـك.

وليـس يخـفى عـلى أحد أن منكـري حكمـة الله وربوبيته مـن الدهرية إنمـا نزعـوا إلى ذلـك لما وصفـت في الوجه الثاني، وهذا باطـل قد موهوه وزخرفوه بما لا إشـباع فيه ولا كفاية، وذلك أنّ غاية ما يحصل للناظر مـن هـذا الوجـه الظنّ والشـك، لا العلم اليقيني بـأن لا حكمة وراء هذا العالـم، إذ كانَ كل مـا يعـرض لهـم مـن هـذا النـوع مقابلا بالنـوع الأول كمـا تـرى، ومهمـا حصلَ الشـك بالثـاني، لزم حصولـه بالأول، فـإنَّ ما ظاهـره الإتقـان سـبب لظـنّ الحكمـة، ومـا ظاهـرهُ العبـث سـبب لظنّ نقيضهـا، ومـتى تعـارض ظن وظنّ لـزم التوقف ولابدّ، فهـذا واضح بين.

فـإن قـال قائـل: إن كان مثـل هذا يلـزم النفـاة، فهو بالـضرورة يلزمكم، ومـتى شـككتم في حكمـة الله بطـل الاحتجـاج عـلى وجـوده إذ مالـم توقنـوا بحكمتـه لـم توقنـوا بعقولكم.

قيل له: ليس الأمر كذلك، إنما يلزم هذا النافي والمتوقف في حكمة الله، وأما نحن فمتى رجحنا الحكمة وآمنا بالواحد الحكيم لم نشك بعد أن ما ظاهره العبث لا يعدو أن يكونَ لأمر خفي علينا، فنكله إلى ما علمناه من حكمته، فيكون علمنا بالحكمة الظاهرة سببا لعلمنا بالحكمة المستورة فافهمه، كالحاذق من العلماء والأطباء إذا ما خفي علينا وجه الحكمة في صناعته، ولإن كان مثل هذا يلزم الناس عادةً فيمن علمه قاصر، فأولى في الرب العلي الذي لا حد لعلمه وحكمته، وله المثل الأعلى، والوصف الأكمل، سبحانه لا إله إلا هو.

وملاك ذلك أننا نقول للنفاة: ما تصنعون بما ظاهره الحكمة إذ نفيتموها لأجل ما ظاهره العبث زعمتم، فإننا إذا أثبتنا الحكمة لما ظاهره الإتقان لم نسكت عن النوع الذي توهمتم منه العبث، وقلنا: ههنا سر خفي على الناس لا يجوز ھوكه بالعقل، أو نظرنا في ذلك فاستنبطنا ما شاء الله من الأسرار، نحوَ الحكمة في النبات والماء المنقطعين بالصحراء وأنه رحمة من الله بالطير وغيرها من الهوام إذا ضلّت سبيلها، **أو قلنا:** حكمة هذا الحجر الموجود لغيره لا لذاته، فإنه سبب لحصول الامتنان والشكر، إذ ما علمناه بضده ليس كما علمناه بذاته، وبضدها تتبين الأشياء، وأما أنتم فمتى نفيتم الحكمة لما ظاهره العبث تعاميتم عما ظاهره الإتقان وتجاهلتموه أبدا.

فإن قال قائل: فلم لا يقول النفاة: كذلك نحن لا نرى للأمور التي ظاهرها الإتقان فائدة غير أن ندرك بها عبثية العالم وأن لا حكمة فيه.

قيل له: أعن يقين قلتم هذا أم شك؟، فإن العبث إذا كان الأصل في العالم لم يمكن الجزمُ بشيء أصلا، وما وصفتموه يجوز عليه العبث كذلك، وقد يكون كما وصفتم أو لا يكون، ثم أخبرونا عن العقل الذي اهتديتم به إلى نفي الحكمة، أجزء هو من العالم أم خارجه، فإن قلتم: هو خارجه كابرتم، وإن قلتم: بل هو جزء منه، قلنا فلم لم يجز عليه العبث كما جاز على عموم العالم؟، فإن العبث إذا كان الأصل في الوجود، والعقل منه، فقد جاز عليه كما جاز على غيره، ومتى كان ذلك كذلك، لم يحصل اليقين بشيء البتة، فافهم هذا، وقس عليه.